

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة



محاضرات

الموسم الثقافي

لكلية اللغة العربية

١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م



« مناهج علمائنا في بناء المعرفة »

بقلم

أ . د . محمد محمد أبو موسى

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

١٤١٩هـ - ١٤٢٠م

نستفتح بما كان يستفتح به شيوخنا رحمهم الله كانوا يقولون أول كلامهم اللهم احفظ ألسنتنا من فضول الباطل ، واغسل قلوبنا وعقولنا من غباوة الجهالة ، وغبّرات الضلالة ، اللهم أمين ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وبعد :

فقد كنت دائم النظر في طرائق أهل العلم ومناهجهم في بناء المعرفة وتأسيس العلوم وكيف كانوا يستخصلون الأصول العلمية ، وأعتقد أننا لو أحسنا تحرير هذا واستخلاصه ، والانتفاع به ، لساعدنا على تجديد حياتنا العقلية ، وتجديد علومنا تجديدا تظل به هذه العلوم عربية خالصة يتلقفها القلب العربي المسلم ، فتزدهر به ، ويزدهر بها ، وتنمو به وينمو بها ، ويَسْقِيها وتسقيه ، ويظل بها عربيا مسلما ولا يتحول بعجمتها إلى أرجوحة بين العروبة والعجمة .

وكنت دائم الإثارة لهذا الموضوع الذي هو دراسة مناهج علمائنا في تأسيس المعرفة مع طلابي ومن أقاربه ويقاربني من أهل العلم ، وهو موضوع غامض لم تطرّق أقلام العلماء الطريق الواصل إليه ، ولا يكشف لك عن وجهه إلاّ بعد فقه المعرفة ؛ لأن طريق الاستخراج يكمن في قلب المعرفة وفي غورها البعيد ، وهذا سر صعوبته ، وسر غموضه ، ومهما يكن من أمره فلا محيد لنا من القرع على بابه حتى يفتح ولا محيد لنا من الطرق على جوانبه حتى يلين وينقاد ويَسْلُس . وبهذا نحكم فهم طرائق البناء ، وننزع أنفسناوأجيالنا من الاسترخاء العقلي الذي أغرقنا أنفسنا فيه ، من طول ما ألِفْنا من مضغ ما كدّ

الآخرون في استخراجه ، وحتى كدنا نفقد حقيقتنا ، وحقيقة علومنا وطابع حضارتنا ، ألفنا مضغ الرجيع ولم نأنف حتى أدرنا عليه مناهجنا ودروسنا ومعاركنا ، ولا بد أن يُنتزع العقل العربي من ذل الأخذ إلى عز العطاء ؛ وهذا مايجب أن نسعى إليه وأن يكون واحداً من أهم أهدافنا وبين أعيننا ونحن نربي أجيالنا . إن استعجام العقل العربي كارثة لا بد أن نمنعها وأن يمنعها معنا كل رجالات هذه الأمة في كل موقع ؛ لأن هذه الكارثة ليست ثقافية فحسب وإنما هي كارثة قومية ودينية ؛ لأنها تعني نهاية الوجود العربي الإسلامي لهذه الأمة والويل لمن لم يدرك .

هذه هي الدوافع التي تدفعني إلى الخوض في غمرة هذا الموضوع ، وأعلم أنه صعب وأن ضعفي وعجزي يحولان دون كشف سره ، ولكني أخترت أن أقتحمه ـ لما سكت عنه الناس ـ مع الضعف والعجز عسى أن يقتحمه بعدي من هو أقدر مني على كشف سره ، وعسى أن تترادف حوله الجهود حتى يتهيأ لسالكيه ، ولا بد من وضع أقدام الجيل عليه .

وهذا حق هذا الجيل ؛ وأمانته في أعناق القائمين على توجيهه ، وسأكتفي بالإشارات الموجزة ، وأقول ـ وبالله التوفيق :

اعتدنا أن نقرأ مصادرنا وهمُّنا هو تحصيل ما فيها من علم ، ولهذا نُسَوِّي بين المصادر التي شاركت في تأسيس المعرفة والمصادر التي جاءت بعد ذلك فجمعت وشرحت ، وصقلت ، ودققت ، وخلّصت ، نقرأ الكل قراءة واحدة ، لانفرق بين طريقة قراءتنا لكتاب الخصائص وطريقة قراءتنا لكتاب المغني ، وكذلك لا نفرق بين طريقة قراءتنا لكتاب دلائل الإعجاز وطريقة قراءتنا لكتاب الإيضاح ، وهكذا مع أن الكتب التي شاركت في تأسيس العلوم فيها شيء

لايجوز اهماله ، وهو التعرف على طرائق العلماء ومسالكهم في تأسيس المعرفة، وإذا كنت أقرأ لتحصيل المعرفة وقطف الثمرة لا غير فسأقرأ رسالة الشافعي كما أقرأ الشرح الكبير في فقه مالك ، وبهذا يضيع مني أهم ما عند الشافعي وهو إعمال عقله بطريقة مستمرة وفذة ، وقيام علمه على الاستنباط والقياس والموازنات ، ثم التقاط الأصل الفقهي الغائب الذي لا تراه في النصوص أول النظر، وإنّما يتوهج لك بعد ما يقدح الشافعي هذا النص بذلك ، أنت في هذه الحالة لم تقطف الثمرة إلاّ بعد ما عرفت كيف صارت ثمرة ، وهذا هو المطلوب في إعداد جيل يبني بعقله ويديه لا بعقل غيره ولابيد غيره ، وقل مثل ذلك في قراءتك لسيبويه وابن جني وعبد القاهر لو أخذت خلاصة ما قالوه في المسألة تكون قد ظفرت بعلم شريف ولو تتبعت خط سير عقولهم وهم يتلمسون ما تحت أيديهم من معلومات مجملة وغامضة ، وكيف كانوا يستخرجون من هذا الغامض المجمل علما مبسوطا، وأبواباً متسعة ، أقول لو تتبعت هذا لظفرت فيه بما هو أفضل من حاصل المسألة الذي اعتدنا على طلبه في قراءتنا، ولا أعرف شيئا أشرف من العلم إلاّ أن نتعلم من علمائنا كيف كانوا يصنعون العلم ، وحين نهتم بهذا الجانب نرى في إرثنا أعاجيب ، حتى إنك لتجد الخبر المطروح الذي يتداوله الناس وهو لايعدو أن يكون حكاية تروي حدثا ، وقد نفذت في غوره بصيرة عالم نافذ ، فيستخرج منه أصلا من أصول المعرفة(١).

ومن أسباب غفلتنا لهذا الباب الجليل أننا لم نهتم الاهتمام الواجب بتاريخ العلوم . ودراسة تاريخ العلم يجب أن تكون على وجه أكثر عناية من

---

(١) راجع ما استخرجه عبد القاهر في باب الحذف من حكاية قيس بن سنان دلائل الاعجاز ص ١٦٩ .

الاكتفاء بالتراجم وعرض المؤلفات ، والذي يدخلنا هذا الباب الشريف هو أن نؤرخ لمسائل العلم وفنون فنًّا فنًّا ، ومسألة مسألة ونتتبّع قصة المسألة من يوم أن لَفَتَ إليها أولُ من لَفَتَ ، إلى أن استوت في الكتب » وكيف تعاورتها أقلام العلماء وكيف حاورتها ، ومن أي جهاتها تجاذبتها ، وأي عالم هزها حتى بسطها ؟ وأي عالم طواها واختزلها ، وكيف تراسلت مع غيرها في حقول المعرفة المختلفة ، من لغة وتفسير ، وأصول ، وأي شئ علق بها وهي تنتقل في هذه الميادين ؟ وكيف كانت تعتورها أقلام مختلفة الاهتمامات من فقهاء ، ونقاد، وأصحاب صناعة حديث ، وأصحاب صناعة شعر ، إلى آخر ما نراه في هذا الباب .

وقد لاحظت أن علماءنا الذين شاركوا في تأسيس العلوم ، كانوا يهتمون اهتماما واضحا ببيان الخطوات التي سلوكها في استنباط حقائق العلوم ، وكانوا يزاوجون في إعداد الجيل الذي يخلُفهم بين أمرين ، الأول تعليم أصول العلم ، والثاني بيان كيف استخرجت هذه الأصول ، والخطوات التي سلوكها ، وكأنهم يعلمون تلاميذهم العلم ، ويعلمونهم أيضا علم صناعة العلم ، حتى يكون هؤلاء التلاميذ متممين لسيرتهم وماضين على دربهم ، وحتى يستوعبوا كل تجاربهم ، ويخوضوا وراءهم كل غمرة ، ويجدوا ما وجدوا من المشقة ، على هذا الدرب الشريف ، وأنها لمشقة صعبة ولكنها مشقة محببة مفضية إلى لذة هي لذة النفوس الكبيرة حين تلابسها النشوة التي تجدها لحظة الكشف وميلاد المعرفة ؛ وحين يفتح لهم باب العلم بعد إدمان قرعة كما كان يقول الجاحظ ، وقد ذكر ذلك في باب شريف ذكر فيه ما في الفكر والنظر من الفضيلة وكان واحدا ممن خامرت نفوسهم تلك النشوات وهم يستكشفون بالحاح وكد ،

وصبر، أغمض ما في البيان من فروق ورقائق . قلت إن علماءنا كانوا يعلمون تلاميذهم كيف يضعون أقدامهم على درب أقدام شيوخهم ، ليواصلوا السير على طريق هؤلاء الشيوخ في تأسيس المعرفة ، وإدمان القرع على الأبواب حتى تفتح ، ولهذا نرى سيبويه يستأنس في نفسه القدرة على إحياء علم الخليل وإتمامه ، فيقول لصاحبه علي بن نصر بعد موت الخليل « تعالى حتى نتعاون على إحياء علم الخليل »، ثم يُحْيِيه ويتمه هو وحده ويكتب كتابه الذي وُصف بأنه ليس في الكتب كتاب في بابه يستغنى به عن كل كتاب إلاّ كتاب سيبوُيه (١).

وكذلك يمضي أبو الفتح على طريقة شيخه أبي علي حتى يصنع علما جديدا يقوم على بيان « ما أُودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة وما نِيطَتْ به من علائق الاتقان والصنعة » وأراد بذلك الحكمة التي وراء كل أصل من أصول هذا اللسان الشريف ، وله خطوات واستنباطات بالغة في الدقة وبعد الغَوْص وسداد الفهم ، وكان يعالج مشقة استخراج ما استخرج بصبر شديد، وينبه إلى إنّ علماء الفريقين يعني البصريين والكوفيين كان يتراءى لهم هذا العلم الشريف حتى يجدوه ولكنهم كانوا يدركون صعوبة الخوض فيه ، بل صعوبة الخوض في أدنى أوشاله . وخُلُجه كما قال فضلا عن اقتحام غماره ولججه ولهذا كانوا « يُعَرِّدون » عنه أي يفرون ثم اقتحم هو الغمار واللجج وما عرَّد ولن أذكر شواهد منه ؛ لأن الكتاب كله بنى على ذلك ولم يكتب في العربية كتاب أفضل منه في بابه وهو قريب مما يكتبه الفقهاء في علل الأحكام ، وإن كان بعض فقهائنا يرفضون الخوض في ذلك ويقولون سمعنا أمر الله ونهيه وأطعنا علمنا العلل أو لم نعلم ، وبعض اللغويين يرى في اللغة مثل هذا الرأي

---

(١) كتاب سيبويه ص ٨ ، ٦ .

ويقولون إن علة العلل هو نطق العرب وما جاء عنهم ولكن أبا الفتح يصر على بيان العلل ويصر على أن العرب كانوا يدركون حكمتهم التي بنيت عليها لغتهم يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم .

ولم يرزق ابن جني إلى يوم الناس هذا عالما يبسط للناس علمه كما بسط هو علم شيخه أبي علي وإن كان قد رُزئ كما رُزئ غيره من علمائنا بمن يغبِّرون في وجهه ، وإذا كان مقصودنا هو الدلالة على التجارب العقلية الفذة والمتميزة في ارث علمائنا والتي كانت أساساً في استخراج المعرفة ، فإنه لايجوز أن نهمل الإشارة إلى كتاب من أجل الكتب في هذا الباب وهو كتاب الرسالة للشافعي رضي الله عنه ، وقد قال فيه إسماعيل بن يحيى المُزني صاحب الشافعي « قرأت كتاب الرسالة خمسمائة مرّة مامن مرّة فيها إلا استفدت فائدة جليلة لم استفدها في الأخرى » وهذا كلام نفيس جدا ومعناه أن طول الملابسة لكلام الكبار من علمائنا يفتح من كلامهم وفي كلامهم ينبوعا بعد ينبوع فينمو العلم بذلك ويتسع ويتجدد ، وكأن الكتاب المقروء نفسه ينمو ويتكاثر ويتسع لطول المراجعة ؛ ولأن تقرأ كتاباً واحداً عشرين مرة أفضل من أن تقرأ عشرين كتاباً، هكذا يُرْوى عن العقاد . وكان الإمام أحمد يرى أنّ الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس ويرى أن الذي يفوته العلم عند عالم قد يدركه عند غيره ، والذي يفوته عقلُ هذا الفتى القرشي فلن يجده عند غيره ورحم الله أحمد وكأنه يقول إن معرفة حركة العقل في علاج المعرفة أعز وأندر من المعرفة نفسها فإذا فاتك العلم عند عالم أدركته عند غيره وإذا فاتك طريق العقل الفذ فقد فاتك مالا يدرك ، وهذا كلام نفيس جدا .

والرسالة مشحونة بآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتناثر فيها تعليقات للشافعي مختصرة جدا ، ولكنها تطوي عملا

عقليا تفردت به الرسالة بين الكتب كلها ، وأغرت اسماعيل بن يحيى بقراءتها خمسمائة مرة وهو في كل مرة يجد فيها جديدا وهذه تجربة عجيبة في القراءة، وتعليقات الشافعي ليست مما حصله من أهل العلم فحسب وانما جزء أساسي منها يرجع إلى ذكاء فطري عرف به الإمام والرسالة قائمة من أولها إلى آخرها على الاستنباط وكان يضع الآية بازاء الآية وضعا يتبلج به الحكم الشرعي ولايحتاج منه إلاّ إلى تعليق بسطر أو سطرين يخرج لك بهما الحكم ويدلُّك على مخرجه ودليله ، وهذه التعليقات المختصرة صارت بها الرسالة منهجا من مناهج التفكير ، وصورة حية من صور أعمال العقل بأقصى طاقاته في نصوص الشرع فالتقى بها المعقول والمنقول في أزكى الصور وأسراها وهي أصل من أصول علم الفقه وهو من أجلِّ العلوم وأحكمها وأضبطها .

وكان الشافعي يعلم أنه يؤسس منهجا في إعمال العقل في النص فبدأ رسالته ببيان أن أعمال العقل باب من الأبواب التي تعبّد الله بها عباده ، يعني أن الله سبحانه كما تعبدنا بفرض الصوم والزكاة والصلاة تعبدنا بأعمال العقل ثم قال (وابتلى طاعتنا فيه كما ابتلى طاعتنا في غيره)(١). وهذا معناه أن التفكير وإعمال العقل باب من أبواب العبادة وأن ابتلاء الله لنا فيه يعني مقدار ما نحاوله من ضبط العمل العقلي واستقامته وموضوعيته وصحة منهجه وسداد نتائجه وأن هذه الاستقامة والموضوعية وسداد المنهج يتفاضل الناس فيها في شرع الله كما يتفاضلون في ضبط الوضوء والصلاة والزكاة وغيرها مما تَعَبَّدهم الله به ، وهذا من أفضل ما يقال في هذا الباب وليس أجل من أن تعلم أن التفكير منسك من مناسكنا .

---

(١) ينظر الرسالة ص ٢٢ .

ويستخرج الشافعي هذا الأصل الكريم من أصول الحياة الفكرية في أمة الإسلام بتعليقاته المختصرة التي كأنها ضربات البرق تشق أسداف الظلام فيذكر قوله تعالى في الصيد : ﴿ ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ (١). ويرى في الآية الكريمة موضعين من مواضع الاجتهاد : الأول أن يجتهد من قتل الصيد في معرفة العدل وما تتوفر فيه من صفات ، والثاني أن يجتهد العدل في تقدير الشبيه والمثيل من النعم ، وبهذا يصير الحكم الشرعي منوطا بالاجتهاد والبحث والتجرد وإعمال العقل ، ويذكر قوله تعالى : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (٢).

وتولية الوجوه جهة البيت التي لا تتم الصلاة إلاّ بها عمل من أعمال الاستدلال والانتفاع بما خلق الله من علامات دالة ، ونجوم تهتدون بها في ظلمات البر والبحر قال الشافعي « فخلق لهم العلامات ونصب لهم المسجد الحرام ، وأمرهم أن يتوجهوا إليه ، وإنّما توجههم إليه بالعلامات التي خلق لهم والعقول التي ركبها فيهم التي استدلوا بها على معرفة العلامات »(٣).

وبهذا الحكم وشبهه صار التفكير والاستنباط وإعمال العقل والتحري في هذه الأعمال جزءا من التعبد لا يتم الواجب إلاّ به ولا يتم الركن إلاّ به وهكذا وضع الشافعي إعمال العقل في موضعه في حياة المسلمين العلمية والعملية .

---

(١) سورة المائدة آية ٩٥ .

(٢) سورة البقرة آية ١٥٠ .

(٣) الرسالة ، ص ٣٨ .

ومن المفيد أن ألم بشيء من هذا في كتاب سيبويه وقد عاش مع الشافعي وعمَّر الشافعي بعده .

وكتاب سيبويه أرسخ وأقدم وأشمل كتاب في علوم العربية ، ولا شك أن سيبويه واحد من البحور الذين تدفق علمهم في هذه الأمة وتدفق عقلهم أيضا ، ولا يزال عقله يطبع عقول الناس وهو واحد من أبرز بناة المجد العلمي الباذخ الذي غيبته عن أجيالنا ضبابات يتلاعب بها من دخلوا ميدان العلم وليسوا من أهله ، ثم هو مع كل ذلك يختلف اختلافا ظاهرا عن كتاب دلائل الاعجاز لأن كل أبواب دلائل الإعجاز أسسها عبد القاهر وسأبين ذلك وليس الأمر كذلك في كتاب سيبويه لأن كتاب سيبويه كان خلاصة علم الخليل .

ولم يكن الخليل مع فضله الظاهر هو الذي استنبط ما أودعه صدر سيبويه وإنما كان الخليل أحد الورثة الذين آل اليهم علم غزير وجليل ممن سبقوه من يوم أن فتح أبو الأسود الدؤلي الكلام في النحو ، وأبو الأسود رجل قديم عاش في الجاهلية والإسلام وهو أول من نهج السبيل ووضع القياس كما يقول محمدبن سلام ، وقد أخذ عن أبي الأسود يحيى بن يعمر ثم قتادة السدوسي وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، وأبو إسحاق الحضرمي الذي قال عنه ابن سلام ، إنّه أول من بعج النحو ومَدَّ القياس والعلل (١).

ثم جاء الخليل وانتهى اليه علم هؤلاء وغيرهم ثم أودعه صدر تلميذه سيبويه ، وكان متوقدا وكان الخليل يحبه ويقر به ، وقالوا ان الخليل هو الذي عقد له أبواب الكتاب وعقد له المصطلحات .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/١٤

ومع كل هذا فإن أثر سيبويه في بناء النحو أثر جليل ؛ لأن علم هؤلاء الأعلام الذين سبقوه لم يكتب إلاّ في القليل منه ، وإنّما كان ينتقل من صدور العلماء إلى صدور تلاميذهم الذين كانوا « يتلقفونه تلقفا » (١).

ثم إنّ النحو أوسع وأرحب وأخصب ، ولهذا تواردت عليه جهود عظيمة ، وكل واحد من أعلامه له حظ موفور من الابتكار والكشف والتأسيس ولا يجوز أن تقارن علم المعاني الذي وضعه عبد القاهرة مع أهميته الشديدة بعلم النحو في اتساعه وعمقه .

وأهم ما أريد أن ألفت إليه في كلام سيبويه هي كلمة أبي عمر الجرمي .

حدّث أبوجعفر الطبري قال سمعت الجرمي ، « يقول أنا منذ ثلاثون سنة أفتى الناس في الفقه من كتاب سيبويه » هكذا قال « ثلاثون » .

قال فحدثت محمد بن يزيد على وجه التعجب والأنكار ، فقال أنا سمعت الجرمي يقول هذا وأومأ بيديه إلى أذنيه ، وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث إذ كان سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش » انتهى كلام محمد بن يزيد .

وأقول معنى هذا أن أبا عمر لم ينتفع بالمادة العلمية التي في كتاب سيبويه بمقدار ما إنتفع بالتجربة العقلية الفذة التي يحتويها الكتاب ويقوم عليها ، ونحن نأخذ من سيبويه النحو ونغفل هذه التجربة التي فطن إليها الجرمي ووعاها وجرّدها من مادتها العلمية وانتفع بها من حيث هي منهج في التفكير ، والبحث ، والنظر ، والتفتيش ، ونقلها إلى الفقه فأخرجت له من الفقه

---

(١) كلمة شيخنا محمود شاكر رحمه الله .

ينبوعا ظل يستقى منه ويسقى ثلاثين سنة لقد تعلّم الجرمي من كتاب سيبويه كيف يستخرج المعرفة الغائبة ، وكيف يبني بها ويضيف إلى الفقه مسائل في الفتيا ، وإذا كان هذا المعنى قد غاب عن الإمام أبي جعفر الطبري حتى حدّث به محمد ابن يزيد على وجه التعجب والإنكار ، فإنّ محمد بن يزيد قد فطن لهذا ودل عليه بتعليقة الرائع ، وكأن هذا الأمر كان له حضوره عند علمائنا وهو أن الكتاب لايؤخذ ما فيه من علم فحسب كما نفعل نحن ، وإنّما يؤخذ ما فيه من طريقة تفكير وإعمال عقل كما أريد أن أقول يعني أن نرقب حركة عقل المؤلف وأن نستقي من طريقة استخراجه للعلم كما نستقي من العلم وأن نتعلم العلم منه كما نتعلم منه كيف نصنع العلم ، وهذا ما عقدت عليه هذا البحث .

وتأمل قول محمد بن يزيد عن الجرمي « وأنه كان صاحب حديث فلما علم كمتاب سيبويه تفقه في الحديث » وفي هذه العبارة بيان للاخصاب والإثراء والإزدهار الذي يتم بالتداخل والتشارب والتلاقح بين فروع المعرفة . لما شغل الجرمي بالنحو زاد فقها في الحديث لا من جهة أن النحو أعانه على تحليل لغة الحديث وإنما من جهة أنه قرأ كتابا يشحذ العقل فبعد مغاصه في باب الحديث، لم يكن طلب العلم استظهارا للمادة العلمية ، وإنما كان تفكرا ونظرا ومفاتشة ، ومحمد بن يزيد يقول كتاب سيبويه لا يعلم النحو فحسب وإنّما يعلم النظر الذي يعلمك كيف تستنبط وكيف تستخرج وكيف تؤسس بالاستنباط والاستخراج علماً جديداً .

وهذا التيار لم ينقطع في الأمة إلاّ في عصر الانكسار عصر مضغ الرجيع ، عصر ثقافة البرق الخلب ـ عصر ثقافة النّتف ، والمستلات ، العصر الذي نحن فيه والذي لن يدوم إن شاء الله وانما ظل الكبار من علمائنا

يحتفظون بهذا المنهج ويهتمون بعمل العقل ، وطرائق تأتيه واستخراجاته ، ويولون ذلك عناية لا تقل عن عنايتهم بالمادة العلمية ، والتي هي قواعد العلم وقوامه ، وتجد هذا في الحواشي والشروح التي لم يعدأحد يقرؤها ، والعلامة التفتازاني من علماء القرن الثامن الهجري يرفض شرح كلمة (علم) في قولنا: علم المعاني مثلا بقولنا القواعد والمسائل ومعرفة الجزئيات والكليات وما هو من هذا الباب ويقول ان العلم ملكة أي طاقة عقلية يقتدر بها على مناقشة قضايا العلم ومشكلاته ، العلم ليس ذاكرة تحفظ وإنما عقل يتحرك ويستخرج ، وقد سئل واحد من علمائنا متى يفتي الرجل ؟. فقال إذا عرف موضع المسألة من الكتاب وهو بالطبع لا يريد عرف رقم صفحتها ؛ لأن الفهرس يبين ذلك ، وإنّما يريد عرف كيف يستخرجها من بين السطور يعني عرف النص الذي إذا غاص في أحشائه وجدها . وهذا من الكلام الكريم لو صادف نفساً.

والآن اقترب من الموضوع بصورة أكثر بيانا وتفصيلا ، وذلك ببيان بعض المسائل وكيف تفجر ينوبعها ؟ وكيف تسلسل ؟ ولا أجد هذا يظهر ظهوراً مشرقاً ، كما يظهر في كتابي عبد القاهر . فإنّك ترى في هذين الكتابين عقل الشيخ الإمام وهو يكشف الحجب حجاباً بعد حجابٍ حتى يضع بين يديك الفكرة الجديدة الغضة التي تترقرق فيها طراوة الميلاد ، وهذا يحتاج منا إلى مزيد من اليقظة ؛ لأنّ هذا الأمر الذي ندل عليه وهو طرائق استخراج المعرفة لاتراه إلاّ وراء فهم المسألة . يعني لايتكشف إلا بعد التحصيل والتدقيق والوصول إلى الجذور والمنابع .

وكان الشيخ عبد القاهر يكره أن يكرر المعرفة التي سبق غيره إلى بيانها، ويكره مضغ المعلوم ، فإذا كان ولا بد أن يكتب في المسئل التي سبق غيره اليها حاول أن يبحث في الموضوع عن فكرة جديدة تائهة لم يفطن إليها من سبقه وأن يجعل هذه الفكرة الجديدة قطب الرحى الذي يدور عليه كلامه ، وبهذه المهارة ينحرف عن السير في الطريق الممهد الذي وطئته الأقدام ، إلى السير في الطريق الذي يستكشفه هو ويمهده هو وتكون قدمه أول من خبط أديمه ووطئ وجهه ، فبحث التشبيه مثلا بحث تناوله العلماء قبله ووسعوا الكلام فيه لأن كلام العرب بنى عليه كماقال قدامة فلما عرض له عبد القاهر وطرق بابه كانت طرقته الأولى على حقيقة غائبة لم يتكلم فيهاواحد ممن سبقوه ، وهي أصل في الباب ، وقد اهتدى إلى هذه الحقيقة الغائبة من جهة النظر والتروي في أصل التشبيه وأنه عقد مشابهة بين طرفين يعني وجود قاسم مشترك بينهما ، ولما تأمل الشيخ هذا الاشتراك وجد هذه الحقيقة الغائبة لأنه وجده يختلف فقد يشترك الطرفان في الصفة اشتراكا حقيقيا وذلك في الصور الحسية وقد يشترك الطرفان اشتراكا مؤسساً لا على الحقيقة وإنما على وجه من المقاربة وهنا يقع على ضالته فيمسك بهذا الخيط ويتتبعه في كلام العرب فتتكاثر الصور وتنجلي الفروق ويتسع الكلام وكله حقائق جديدة وفروق جديدة وأساسية في بناء الكلام تقوده حقيقة إلى حقيقة ويفضي من فرق إلى فرق ويدخله باب الى باب وهكذا ترى أنك بدأت مع الشيخ علي طريق معلوم ثم اقتادك إلى آفاق جديدة وأرض بكر لم تطأها قدم قبله وهو فَرَطُك الذي يقودك بمهارة عقلية مذهلة فيكشف لك سرا هنا وعلة هناك فإذا رآك اهتززت واستحسنت كما كان يقول أو تملكتك طربة كما يروي هو عن أبي الحسن وقف

ودخل معك في سر نفسك وربط لك هذاالذي أثارك بطبائع هذه النفس ثم يدلك على أنك لست وحدك الذي تستحسن هذا وانما تستحنه كل نفس حية : لأنه مبني الطباع وموضوع الجبلة.

ثم لا يقف بك عند هذا الحد وانما ينقلك أنت والقاعدة من باب الشعر والبيان إلى دائرة الصناعات الدقيقة ، وكل عمل إنساني له اعتبار ، ويريك - وهذا مهم جدا - أن هذا كله يدخل في هذه القاعدة البلاغية ويخضع لأصلها وكأنه حَفْرٌ في طبع الانسان وأن القدرةهناك في هذا الطبع - على بناء البيان تتناغى مع القدرة على كل عمل شريف وكل بناء دقيق ، وهكذا يضع لك المهارات أو القدرات الإنسانية والمواهب الفردية في نسق فلسفي وبناء حضاري متماسك ومتكامل ، وكأنك لاتتعلم درساً في البيان وإنّما تتعلّم كيف تبنى الانسان ، وبناء الإنسان هو الغاية التيْ يحط عندها العلم رحله ، ويلقى العالم عندها عصاه ويستقر به النوى .

وكان عبد القاهر كلفا بالنصوص العلمية التي تدل في كلام من سبقوه على طريقة تأسيسهم للمعرفة ، وعلى وجه بنائهم لمسائل العلوم ، واستنباطهم لها ، كان كلفا برؤية القاعدة لحظة ميلادها .

تراه في باب القصر يبدؤه بنص لأبي علي الفارسي ذكره في الشيرازيات، وهو أظهر نصوص الفارسي دلالة على طريقة أبي علي في استخلاص القاعدة ، وقد بُنى النص على كلمة قالها « ناس من النحويين » كما يقول أبو علي يعني ليسوا من مشاهير النّحاة - يفسرون قوله تعالى : ﴿إنّما حرّم ربِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ بقولهم ما حرم ربى إلاّ الفواحش،

ولما سمع أبو علي هذا لم يقض بصحته ولا بخطئه وإنما جعله أمراً معلقاً حتى يصيب ما يثبته أو ينفيه فيما يقرأ ويسمع من اللغة وكلام العلماء ثم قال : « وأصبت ما يدل على صحة قولهم في قول الفرزدق « إنّما يدافع عن أحسابهمَ أنا أو مثلي » وقد فصل الفرزدق الضمير مع إمكان اتصاله وقال يدافع أنا ولم يقل أدافع أنا والأول لايجوز في كلام العرب إلاّ إذا كانت إنّما بمعنى النفي والاستثناء ؛ لأنه يجوز أن نقول : ما يدافع إلاّ أنا ، وهذا يؤكد ما قاله ناس من النحويين وهكذا يلتقط الفارسي بدقة فائقة ما في بيت الفرزدق من دلالة ثم يراجع كلام أبي اسحاق الزجاج في قوله تعالى : ﴿ إنّما حرّم عليكم الميتة ﴾ ، وأن معناه ما حرَّم عليكم إلاّ الميتة وأن هذا التفسير الذي فسر إنّما بمعنى ما وإلاّ ، في الآية الكريمة يوافق قراءة الرفع « إنّماحرّم عليكم الميتة » ؛ لأنّ الميتة في قراءة الرفع خبر ما ، والأصل إنّ الذي حرّمه عليكم الميتة ، وهذا يفيد القصر وتفسير . إنّما بـ « ما » و« إلا » يفيد القصر ، وهذا وجه الموافقة .

وهكذا كان أبو علي في النص الذي نقله عنه عبد القاهر يرصد ويجمع ، ويحلل ، ويراجع ، ثم ينتهي إلى ما ينتهي إليه الرصد والجمع والتحليل والمقارنة ونتيجة هذا أن إنّما بمعنى ما وإلا ومثل هذا التفسير للحرف لا بد أن يكون مستخلصا من مقدمات صحيحة ؛ لأن تفسير معاني الحروف لا يجوز التساهل فيه ولا بد أن يكون قد روجع حتى نتأكد من معناه وإلاّ أفسدنا دلالة الكلام ، وأفسدنا معاني التفسير وندخل بذلك باب الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وهذه محاذير لا منجاة لنا منها إلاّ بضبط المنهج والمبالغة في الدقة والبحث عن وجه الصواب . وبهذا يختلف منهج علماء الإسلام عن مناهج الأمم الأخرى وهذه إحدى مخاطر مضغ رجيع الأمم مع الجهل بعلومنا .

لا شك أنك حين تعود إلى نص أبي علي الفارسي ستعجب بهذا التيقظ الشديد وكيف كان يستخلص خيوط القاعدة من الشعر والتفسير وأفواه العلماء ومأثورات السلف ، وكيف كان يضيف كل ذلك بعضه إلى بعض ويرتب بعضه على بعض ويختبر بعضه ببعض ثم يستخلص الفكرة التي يفضي كل ذلك إليها .

وأنا على يقين من أن عبد القاهر أدرك هذا في نص الفارسي وأدرك أن الفارسي لم يكن يحدد قاعدة وإنما كان يشرح خطواته التي انتهت به إلى هذه القاعدة ولو كان الفارسي يريد بيان القاعدة لكفاه أن يقول ان إنما بمعنى ما وإلا من غير أن يقص علينا قصة عقله وهو يستخلصها ، ولو كان عبد القاهر يعنيه أن يحدثنا بما انتهى اليه العلماء لمانقل هذا النص الطويل ، وبلفظ أبي علي ، وكان يكفيه نصف سطر يقول فيه : إنّ إنّما بمعنى ما وإلا كما قال الفارسي ، وكل هذا يؤكد ما أقول من أن علماءنا كانوا يعلّمون الأمرين معا العلم ، وعلم صناعة العلم ، أو قل العلم ومخارجه التي استخرج منها ، ومناهجه ، ووسائله وطرائقه ، التي تهدي إلى هذه المخارج ، أو كما قالوا الاستنباط والقياس والعلل ، وهذه الثلاثة كأنها أركان العلم .

ثم إنّ عبد القاهر أراد أن يعلمنا هو كيف نتعامل مع المعرفة التي بين أيدينا وهل نعتبر النتائج التي توصل إليها من قبلنا من العلماء نهاية الأمر في المسألة أم نعتبرها نقطة بداية ؟ ونحول نتائجهم إلى مقدمات ؟ يختار عبد القاهر الطريق الثاني ويحول الكلمة النهائية لأبي علي إلى كلمة بداية يقطع معها وبها مسافة جديدة في الفقه والتحليل ، ولم يتهيأ له ذلك إلاّ بالتدقيق في قراءة كلمة أبي علي التي قرأها قبله علماء كثيرون على مدار مائة سنة أو تزيد

وكان قراؤها من مثل أبي الفتح بن جني وعلى بن عيسى الرماني ، وشيخه أبي الحسن ابن أخت أبي علي الفارسي ، لم تمنعه مكانة هؤلاء وغيرهم ممن هم في طبقتهم أو أفضل منهم ، أن يعيد قراءة كلمة أبي عليٍّ على طريقته في الروية ، والاستنباط ، وقدح كلام العلماء بزناد العقل كما كان يقول فاستخرج منها خبئا جديدا أو فجر منها ينبوعا آخر ، وكان أول فَتْق فَتَق به هذه الكلمة النهائية لأبي علي هو أنه فرْق بين أن يكون الشيء فيه معنى الشيء ، وأن يكون الشي الشيء ، وما دام أبو علي قال : إنّ إنّما بمعنى ما و إلاّ فلابد أن يكون قصده أنّها ليست هي ، ولا بد أن يكون بينهما فرق ثم أخذ يتلمس صور هذا الفرق فرآه في اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فإن كلمة « أحد » أو « من » الزائدة تأتي مع النفي والاستثناء فتقول ما أحد إلاّ وهو يقول كذا وما من رجل إلاّ ويعلم ذلك ولاتقول : إنّما أحد ولا إنّما من رجل . وهناك أساليب تصلح فيها إنّما ولا تصلح فيها ما وإلا تقول إنّما جاءني زيد لا عمر ولا تقول : ما جاءني إلاّ زيد لا عمر ، وهذه فروق قاطعة بأنهما ليساسواء وكذلك الحال في المعنى فإن إنما تأتي في الأمر لا يجهله المخاطب ولا ينكره ، فتقول : إنّما هو أخوك ولاتقول : ما هو إلاّ أخوك . وهكذا فتح الشيخ باب الفرق بين هذين الطريقين واستوفى ذكر المقامات التحقيقية والتنزيلية لهما وقاده بيان الفرق إلى ذكر لا العاطفة والفرق بينها وبينهما في المعنى وهذه رؤوس موضوعات ما سماه العلماء بعده باب القصر الذي لم يكتب فيه شيء قبله وهو من أدق وأجل أبواب بلاغة هذا اللسان ولم يكتب أحد فيه بعده إلا فضل تحقيقات وتقسيمات لم تدخل في جوهر المادة العلمية . ومن أهم ما تهيأ به عبد القاهر لهذا البناء الجليل هو أنه استيقن أنه يواجه غوامض في فروق الصيغ ودقائق في فروق

الإبانة فاستثار أقاصي ما في نفسه من تنبه وتركيز واستغراق ثم ارتاض مع هذا علي الصبر في التدبر والمراجعة . ولهذا ألاحظ أن المخبآت العظيمة كانت تتجلى له بُعيد مواجهته للغوامض واقتحامه خلجان الضباب في طرائق اللغة ووجوب إبانتها فباب القصر الذي هو كنز من كنوز علم هذا اللسان الشريف إنّما عثر عليه وأزال أسداف غيبه بعدما تحير وتلدد أمام غوامض كلمة إن التي خفيت على الكندي المتفلسف حتى توهم في كلام العرب حشواً ثم لم يسكت الكندي ؛ لأنه لم تسكن نفسه إلى أن في كلام العرب حشواً ، فركب إلى أبي العباس ثعلب وحدثه بما جرى في نفسه وأنه لا يجد فرقاً بين قولنا : عبد الله قائم ، وإنّ عبد الله قائمٌ ، وإن عبدالله لقائم . فأخبره أبو العباس بالفروق بين الصيغ الثلاثة ويعقب الشيخ عبد القاهر على القصة بكلام نفيس جدا أضعه بين يديك هو قوله : « واعلم أنّ ههنا دقائق لو أن الكندي استقرى وتصفح وتتبع مواقع إن ثم ألطف النظر وأكثر التدبر لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها وألاّ تدخل » انتهى كلام الشيخ ، ثم بدأ هو يعالج ما كان على الكندي أن يعالجه بهذا المنهج الذي وصفه والذي هداه إلى الكشف عن سر كلمة « إن » ولاحظ أنه لم يكتف بما أجاب به أبو العباس ثعلب كما اكتفى من سبقوه من زمن أبي العباس إلى زمانه ، وكما اكتفى ابن الأنباري الذي روى هذا الخبر، وهو من هو ؟ علما وإحاطة ، كما يجب أن تلاحظ الخطوات التي اختطها لطريق الاستخراج والاستنباط والاستبصار وأنها تقوم أساسا على استقصاء مواقع هذا الحرف في كلام العرب وتتبعه وتصفحه ، وأن هذه هي مادة البحث التي لايجوز الكلام في غيبتها وفيها الخبيء الذي يبحث عنه ؛ لأنه بعد إحضار مواقع الحرف من كلام العرب تبدأ المرحلة الثانية من مراحل التفتيش والتنقيب، والاستخراج ، وهي إعمال العقل إلى أقصى طاقات إعماله ، وبحذر شديد ،

ويقظة شديدة ، ثم إنّ هذا الإعمال وهذا التفكير في التراكيب اللغوية التي جمعت جمعا لايقوم على الاختيار ، وإنّما يقوم على الاستقصاء والاستقراء ، والتصفح ، والتتبع ، أقول هذا الإعمال والتفكير لابد أن يطول ويراجع وأن تقلب هذه الصور باللسان ، وبالعقل ، وبالحس ، وبالصبر ، وباليقظة ، حتى يستخرج خبيئها المستكن في أغوارها تأمل قوله « ثم ألطف النظر وأكثر التدبر » وأنه لم يقل ثم أنظر وتدبر ، وإنما ذكر لطف النظر وليس كل واحد بقادر على أن يلطف النظر ؛ لأن معناه أن تتلمس الجهة التي منها تنظر بلطف ودقة ، حتى تنظر فيما يكون فيه النظر مفيدا ، ومنتجا ، وهكذا ...

ثم طبق هذا المنهج واستخرج ثلاث عشرة صفحة من ص ٣١٥ ـ ص٣٢٨ في دلالات إن ومواقعها لم تكتب في العربية قبل أن يكتبها ، ولم ينته من بيان دقائق هذاالحرف الذي رآه المتفلسف حشوا ، والذي أبان ثعلب عن فحواه في ثلاثة سطور، هي التي تتردد في كتب البلاغيين المتأخرين ، وراجع قول الشيخ : « لتعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها والا تدخل » وكيف ينتج من التتبع والتصفح والاستقراء ولطف النظر وطول التدبر علم يوصف بأنه «علم ضرورة » يعني لايعترضه شك ، وكيف تكون خوافي الدلالات اللغوية غارقة في الغموض، فإذا استخرجت صار العلم بها علم ضرورة وهذا غريب ومن المواطن التي يحب العقل الحي مراجعتها وكان منهج الشيخ كما قلت في التتبع والاستقصاء لكلام العرب ثم لطف النظر وطول التدبر منهجا مباركا في كشفه عن مخبآت هذاالحرف حتى رأى معاني هذا الحرف وفروقه تنثال عليه ، ويهمي غمامها ، ويتكاثر صوبها ، فأراد أن يطوى الحديث وأن يكتفي بماقال ؛ لأنه بهذا العطاء الغمر يمهد السبل لمن يريد أن يسلكه ، ونبه إلى أنّه بقى في الحرف أسرار، ثم

نقل الحديث إلى كلمة « إن » إذا اتصلت بها ما الكافة ، وصارت إنما وبهذا ولج الباب الذي سمى بعده باب القصر ، وتأمل كيف كان ينتقل ؟ وكيف ينبه إلى ما ترك من أسرار تحتاج إلى من يأتي بعده لاتمامها ؟ وأنه يفتح الأبواب ولايستقصي؟ وأنه يشق طريقا من بعد طريق ؟ قال : « وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية بالشيء يدرك بالهوينا ، ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا ونأخذ في القول عليها إذا اتصلت بها « مام »(١).

وقد رأيت الشيخ يتولج من مكابدة البحث في الغموض والخفاء إلى فسحة الكشف والاستنباط والإبداع ، وأنه ما شكى المكابدة والمشقة والاعتياص إلاّ رأيته بعد قليل ينشر بين يديك فصلا متسعا من فصول معرفة جديدة زحزح عنها حجبها بعد المكابدة ، وبذل المشقة واستفراغ المجهود ، وهذه الألفاظ دوارة في معجمه . وكما بسط باب القصر وهو في ضيق البحث عن خواص إنّ التي غابت عن الكندي المتفلسف رأيته يفتح باب الفصل والوصل لأول مرة في تاريخ هذا اللسان الشريف ، وهو يكابد استنطاق الواو في الجملة الحالية ، ولماذا تأتي في الكلام مرة وتغيب مرة ، وما الفرق بين قولنا : جاء يسعى غلامة بين يديه ، وجاء وغلامه يسعى بين يديه ، ويستحيل عند الشيخ أن يكونا سوء ولو كانا سواء لذكر العرب واحدة ولم ينطقوا بالثانية ؛ لأن وجود العبث في بناء اللغة عند الشيخ وعند علمائنا مستحيل ، وما دام العرب قالوا بالواو وبدونها ، فلا محالة لها في معانيها قصد ، وغرض مع الواو ، وقصد وغرض بدون الواو ، ولكن العلماء الذين سبقوا الشيخ سكتوا عن

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٢٧ .

بيان هذه العلة وعنوا فقط ببيان أحوال مجئها ، ومتى تكون واجبة ، ومتى تكون جائزة ، ومتى لاتجوز ، وبقى الطريق إلى بيان العلة ملبسا غير مسلوك ، والجهة التي تعرف منها غير معروفة ، كما يقول الشيخ ثم قال وأنا أكتب لك أصلا في الخبر إذا عرفته انفتح لك وجه العلة في ذلك »(١) .

ولايمكن أبداً أن نفهم العلم مالم نحلل الألفاظ الجارية على ألسنة العلماء، ونستخرج منها مضمر أغراضهم التي أودعوها في مضمر الكلمات ، تأمل «الأشكال والغموض » الذي يواجهه كثيرا ؛ لأنه دائماً يستخرج ، وعُقله يتحرك إلى أقصى طاقاته ، وهذا بخلاف من ارتاض واعتاد على مضغ « كلام غيره فإنّه لايواجه إشكالاً ولاغموضاً ؛ لأن الذي واجه الإشكال والغموض نيابة عن الماضغ الفاضل ، هو صاحب هذا « المنجز » ثم تأمل قوله : « الطريق غير مسلوك ، والجهة غير معروفة » ، والوصول إلى المراد يقتضي أمرين أن تحدد الجهة التي تتوجه إليها أفي شرق هي أم في غرب » وبعد تحديد الجهة تعرف الطريق الذي تسلكه في هذه الجهة ، وعبد القاهر يتدرج من الغموض إلى الأغمض ، فيقول الطريق غير مسلوك ، وحتى الجهة غير معروفة ، وكأن الرجل وقف في مفازه « يحار بهاالقطا » ثم وهو في هذا التيه يضرب ببوارق عقله فيهتدي إلى شيء لايزيل الإشكال ، وانما فقط يفتح الطريق إلى إزالته ، وهذا الشيء الذي يفتح الطريق فقط هو معرفة طبيعة الجملة الحالية وموقعها من الجملة ، الأم التي جاءت فرعاً من فروعها ، والتي قال العلماء قبله ، ومنهم أبو الفتح إنّها خبر ثان ألْحِقَ بالخبر الأول ، وعبارة أبي الفتح في المحتسب هي : « ألا ترى أنّ الحال زيادة في الخبر وضرب منه » (٢) .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢١٢ .

(٢) المحتسب ص ٣٠٧ .

وقد فطن عبد القاهر إلى أهمية هذا الأصل وجعله نجمه الذي يهتدي به فاستخلص قاعدة ذهبية في دلالة بيان العربية وتحليل نصوصها لم أقرأها لأحد قبله وفحواها أن هذه الجملة الحالية إذا كان قصدك أن تضم معناها إلى معنى الخبر في الجملة الأم فلاتأتي بالواو واجعل الثانية مضافة للأولى وجزءا منها وفرعا لاصقابها لاينهض وحده ، وكأن عنايتك بمضمون الجملة الحالية ليس له استقلال في نفسك ، وكان القصد في قولك جاء يسعى غلامه بين يديه هو الأخبار بالمجيء الذي كان السعي جزءا منه ، فإذا جئت بالواو وقلت وغلامه يسعى بين يديه كان ذلك لفضل عنايتك بهذه الجملة الثانية الملحقة بالجملة الأم، وكأنك تخبر خبرين ، الأول هو المجيء والثاني هو السعي ، ومرجع ذلك إلى أن التغاير أصل في سوس هذه الواو ، فلا تقع في الكلام إلاّ وهي مؤذنة بأن ما بعدها غير ما قبلها ، وهذا المعنى هو أصل معنى العطف الذي هو أصل معناها ، ثم إنّ معنى العطف هذا لا ينخلع عنها ولو كانت واو حال ، ويلخص عبدالقاهر في آخر المبحث الفرق بين مجيء الواو وعدم مجيئها ، فيقول : «فرق بين أن تقول جاءني كذا وأن تقول جاءني وهو كذا » ، وهذا كما نرى من أدق ما يكتب في علم اللسان . وينتقل عبد القاهر من غموض الواو الواقعة في الجملة الحالية إلى الواو الواقعة بين الجملتين المستقلتين مثل : جاء زيد وذهب عمرو ، ويرى أن مجيء الواو مرة وغيابها مرة في الكلام الذي يعطف بعضه على بعض ، أو يترك العطف فيه ، حتى تكون الجمل منثورة تستأنف الواحدة فيه بعد الأخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلاّ الأعراب الخلص والأقوام طبعوا علي البلاغة ، وأوتو فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم به أفراد » (١).

---

(١) دلائل الاعجاز ٢٢٢ .

وهو بذلك يدخل باباً آخر من أبواب الغموض ودقة المسلك ؛ لأنّه ليس بين يديه في تراث العلماء ما يبين العلة في مجيء هذه الواو وفي تركها وليس أمامه إلاّ أن يبحث ، ويستخرج ، فيسلك طريقاً آخر يؤسس فيه باب الفصل والوصل، وهو طريق القياس الذي طالما نبه إليه ، وجمع بينه وبين الروية والاستنباط ، والفكر ، وسلك هذه الأربعة التي هي مفاتيح العلم في عقد واحد وطالما بدأ بالفكر ثم بالروية ثم بالقياس ثم بالاستنباط وتأمل ترتيبها وتنزيلها في الذكر على وفق منازلها في الممارسة والعمل ، وكأنه يصف الخطوات التي يخطوها الباحث عن الحقيقة الغائبة وأنه يفكر ، ثم يتروى في التفكير أي يصبر عليه ، ويمعن فيه ، ثم يقيس مالم يعلم على ما علم ، ثم يستنبط ، وهكذا فعل في باب الفصل والوصل فقد فكر في أمر الجمل التي يعطف ببعضها على بعض ، أو الجمل التي يؤتي بها مستأنفة منثورة ، وتروّى في التفكير ثم قاس أمرها الذي يجهله على أحوال المفرد التي يعلمها ، ووجد في المفرد مايعطف ، وما لايعطف وأن هذا لعلل فنقل هذه العلل إلى الجمل ، وجرّب ، واختبر ، فاستقام هذا الأصل واضطرد ، فاستنطق أحوال الجمل بالقاعدة فنطقت ، ثم سجل هذه القاعدة الرفيعة في فهم نصوص العربية ، وهي أن ترك العطف يكون للاتصال إلى الغاية ، أو الانفصال الى الغاية ، وأن العطف يكون للتوسط بين هذين الأمرين ، وليس المقصود أن أشرح هذا وإنّما المقصود أن أبين كيف أُستخرج ، وأن أصله هو أن الكلمة المفردة إذا كانت تأكيد ا للتي قبلها ، أو صفة لها أو بدلا منها لا تعطف عليها ؛ لأنها هي ، ولأن الوصل بين الكلمتين قائم من ذات الدلالة والمعنى ، فلا يصح وجود عاطف ؛ لأن الواو حينئذ تكون قد وقعت بين الشيء ونفسه ، وليس هذا من مواقعها ؛ لأن المغايرة شيء في سوس طبعها،

وكذلك الجمل التي هي بهذه المنزلة ، وكان بين يديه فيض من الكلام العالي ، منه ما هو موصول ، ومنه ما هو مفصول ، وفي ضوء هذا القبس الذي التقطه من نظام اللغة في علاقات المفردات ، أخذ يبحث في هذه الشواهد الموصولة والمفصولة ، ويفكر ، ويتروّى ، ويقيس ، ويستنبط .

واكتفى بهذا وان كانت هناك موطن كثيرة في كتابي الشيخ تُغْرى بمزيد من البيان ، حتى إنك لترى مسائل علمه تسبح دائما في طرائق نظره ، فلاتنفصل ، مسألة عن طريقة استخراجها ، وكل فكرة موسومة ببيان كيف تخلَّقت ؟ وكيف استخرجت ؟ وكأن عليها بطاقة تدل على ميلادها ، والرحم التي احتضنتها ، وكيف لمح الشيخ نبضها ، في رحمها ؟ وكيف شق الحجب عنها واجتلاها ؟ وكان كثيراً ما يذكر الجوهر في الصدف ، وأنه لايبرز لك إلاّ بعد أن تشقه عنه ، ويذكر العزيز المحجّب لا يريك وجهة حتى تستأذن عليه ، ويقول ليس كل أحد يُفلح في شق الصدفة ، ولا كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه » (١) ، وحين تراجع هذا ومثله في كلام الشيخ تعجب من الذين يشيعون القول بأنه سطا على بلاغة اليونان ، وأنه تلميذ أرسطو ، وتقطع بأن الذي يقول هذا لابد أن يكون واحدا من اثنين إما أنه لم يقرأ ، أو قرأ ولم يفهم .

وما كان ينبغي أن نهمل هذا في تربيتنا لأجيالنا ؛ لأنه لا أجل ، من العلم إلاّ أن نتعلم كيف بنى العلماء العلم ، وليس تحصيل العلم مع أهميته بكاف في تربية الأجيال ، لا يكفي أن نعلمهم كيف يحصلون ، وإنما لابد أن نعلمهم كيف يبنون ، ومن تعلم البناء بنى ، ومن بنى كدّ ، ومن كدّ اشتد ، ومن اشتد حفظ ، ورعى وحمى .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٤١ بتصرف .

وبهذا نعد أجيالنا لحماية أرضنا من بعدنا ، وعلومنا هي أصول حضارتنا وحضارتنا هي مصنع رجالنا وعمود قوتنا قلت ان هذه الروح النشطة اليقظة الفعَّالة في منهج علماء الإسلام ظلت عنصرا قائما في علومنا ، وان كانت تظهر في كتب الصدر الأول ، وإنك لتراها في تراث القرن الحادي عشر والثامن عشر الهجريين وهذه الحقبة هي آخر الأزمنة لسيطرة هذه العلوم على ديار الإسلام : لأن أهل النصرانية استباحوا بلادنا في أوائل القرن الثالث عشر ، وكانت بلادنا تعمر بعلومنا ، ورجالنا ، ومناهجنا ، وتدور فيها دروس العلم وتنشأ الأجيال وهذه العلوم تجري كالأنهار في كل أصقاع ديار الإسلام حتى الشعوب الإسلامية التي لم يغسل اللسان العربي ألسنتها من العجمة جرت فيها هذه العلوم ؛ لأن الدين لايصح إلاّ بها فشقت هذه العلوم طريقها في أدغال العجمة في آسيا وأفريقيا ، وأقبلت عليها عقول أهل الدين وقلوبهم ، حتى إن بعض العائلات في أفريقيا سُمّي بها فيقال : فلان النحوي كما يقال فلان الفرضي نسبة إلى علم الفرائض وهكذا جعلوا هذه العلوم أمّا لهم وأبًا .

وكان جَرَيَانُ هذه العلوم في قلوب أهل الإسلام هو الرباط الذي يجمع هذه الأمة مع تباعد ديارها واختلاف أجناسها ، ولم تكن كذلك إلا لأنها علوم هذا الدين ، ومفاتيح ما أنزله الله على رسوله ، ولن يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه ، وماله ، وأهله ؛ وقد أصابت هذه العلوم فضلا من فيض هذا الحب ، فأحبها من أحب الدين واجتواها من اجتواه وانظر حولك وتأمل تجد صدق ما أقول . ولهذا أدرك عدوها الألد أن التجزئية السياسية التي فرضها على شعوبها لم تحقق مرادهم من التفتيت والتشتيت ؛ لأن العلوم الواحدة والثقافة الواحدة المرتبطة بدينهم جمعت هذه الأمة كلها في جسد واحد

يشد بعضه بعضا ويكمل بعضه بعضا، كما صاغ فيها جنوداً وقواداً صنعوا في التاريخ الأعاجيب التي تشبه الخوارق حتى أن الرغبة العارمة إلى الاستشهاد في سبيل الله دفعت قائداً مسلماً إلى أن يلبس كفنه يوم لقاء العدو وقبل بدء المعركة وحمل راية جيش الإسلام وهو في ثياب كفنه قال الراوي : جاء رومانوس الرابع قائد جيش الروم في مائتي ألف وستمائة وزحف على ديار الإسلام وكان قائداً جريئاً جشاعا يمتلىء غرورا وكان قد ملك زمام الأمر في بلاده ، والتفّت الروم حوله . ولما علم القائد المسلم بذلك لم يكن حوله من رجاله إلا خمسة عشر ألفا فطلب المهلة من قائد الروم فأبى ، فلما كان يوم الجمعة اغتسل القائد المسلم ولبس ثيابا بيضاء ، وتحنّط ، وخطب في جنوده وقال : إن قتلت فهذا كفني فاستعرت الحمية في صدور الجند وزحفوا نحو عدوهم ، والتقى الجمعان وفار التنور، ووجد رجالنا ريح الجنة ، فانكشفت الحرب عن هزيمة مروّعة لمائتي ألف وستمائة من الروم بسيوف خمسة عشر ألفا من المسلمين وأسر قائد الروم ومعه قواده وأشرقت الأرض وتطهرت ولما حضر ارمانيوس بين يدي القائد المسلم ذكّره بأنه طلب منه المهلة فأبى ثم أطلقه من الأسر ومعه قواده وحباه بهداياه وخرج في وداعه قدر فرسخ ، فذهل قائد الروم بما رأى وابتدر القائد المسلم بقوله أعاهدك على أنّي لا أحاربك ولا أساعد من يحاربك وأن أكون نائبك في حكم الروم وأن أدفع لك الجزية وكان ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي في الزمن الذي عاش فيه عبد القاهر هل يعرف هذا الجيل إلى أي مدى بلغت قوة المسلمين ، وحضارة المسلمين ، وعلوم المسلمين حتى إن ملك الروم يعني أوربا من جنوبها إلى شمالها ، تعهد بدفع الجزية لطُغرك بك حاكم اقليم من أقاليم دولة الإسلام ؟ هل يعرف الجيل هذا

التاريخ وهذا المجد أم أنه يعرف ما يسمعه من قدح المهازيل في تاريخ الإسلام وعلوم الإسلام ؟ (١) .

أدرك عدونا هذا وأكثر من هذا ، ولما دالت له الأيام ، ودالت علينا ، وغلب على ديارنا كان التصميم الأكيد على طمس هذا النهر الذي يخصب هذه الديار فتنبت هؤلاء الرجال الذين لم ينقطع شبههم بطلائع الفتح في صدر الاسلام . والذين يرفضونه ويرفضون سيطرته ويرفضون وجوده ، ويرفضون حضارته ، وقيمها ، وأصولها ، وفروعها ، وكل ما ينبثق منها ، وهذا الرفض القاطع يختص بالعلوم الداخلة في تكوين الانسان وبنائه ، وهي عندنا العلوم العربية والإسلامية ، ولا يشمل العلوم التي هي خارج هذه الدائرة ، كالرياضيات ، والكيمياء ، والفيزياء ؛ لأن هذه العلوم لا تتغير بتغير البيئات ، والحضارات ، ولا شأن لها بالعقائد ، وإنّما هي حقائق واحدة في شرق الأرض الأرض وغربها ، وهي علم مشترك بين الناس جميعا مهما اختلفت عقائدهم .

قلت كان التصميم الأكيد على طمس هذا النهر الذي يخصب الأرض فتنبت رجالاً كرجال طلائع الفتح الأول ويحكي الجبرتي أن جنود نابليون كانت تتوجه إلى المكتبات في المساجد ، والتكايا ، والزوايا ، تنهب منهاما تنهب ، وما لاتستطيع نهبه أحرقته ، أو دمّرته ، وأن المكتبات كانت كأنها ثكنات عسكرية .

ومن أجل هذا الطمس وامعانا فيه وفي تغييب هذه العلوم افتُعلت قضايا ومعارك ودُلست حقائق وشاعت أفكار كلها تعمل على تغييب هذه العلوم وهذه المناهج واحلال علوم العدو المحتل محلها . من ذلك المعركة بين القديم والجديد التي ثارت في أول هذا القرن .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي جـ ١ ، ص ٢٢ .

ومعنى القديم في هذه المعركة ليس الفكر الذي يرجع إلى الزمن القديم كما يدل عليه اللفظ ، وإنما كل ما يتصل بعلوم العرب المسلمين ، ولو كان كُتب اليوم ، ولم يجف مداده بعد ، ولهذا كانت كتابات الرافعي تعد في القديم ، وقابل ذلك أن الجديد كل ما يتصل بالفكر المسيحي وجذوره اليونانية ، فكان الكلام في الاليادة ، وأرسطوا ، وسوفكليس ، وأساطير اليونان كل ذلك من الجديد ، مع ايغاله في القدم ، ولو سمينا الأشياء بأسمائها لقلنا إنها معركة أوصراع بين علوم الاسلام أولها وآخرها ، وعلوم النصرانية بكل جذورها الوثنية اليونانية ، ولو طرحت بهذا الاسم الدال على جوهرها ما اجترأ أحد من أبناء جلدتنا على الوقوف مع علوم النصرانية ، ومما يدلك على أن حقيقتها كما أقول أن المقالات التي كتبها الرافعي في الدفاع عن القديم جمعت بعنوان تحت راية القرآن وتأمل العنوان يدلك على صدق ما أقول .

اختير لها هذا الاسم المدلِّس ليواري بشاعتها ، ويخفى شناعتها ، وكلمة الجديد لايرفضها من له عقل ، ولو قلت للناس فلان يرفض الجديد لقالوا لا شك أن عنده حالة عقلية يرجى لها منها الشفاء ، ولو عبرت عن الأشياء بأسمائها وقلت إن فلانًا يرفض تدمير أصول حضارة الإسلام ، وغرس أصول حضارة مسيحية في ديار الاسلام لوقف الكل معه . ونقطة البداية أن نسمى الأشياء بأسمائها .

وقد قرأت كلمة لشيخ الأمناء ـ رحمه الله ـ أفزعتني ، وقلت في نفسي عفا الله عنه كيف قالها . فحواها في مقدمة كتاب فن القول الذي لا يزال يذكره من علم ومن لا يعلم ، انه كان وهو في إيطاليا أيام هذه المعركة يسمع قعقعة القديم وهو ينقض تحت ضربات الجديد ، ولا يبتئس لذلك ، وهذا الذي

لايبتئس لذلك يعني لسماع قعقعة علومنا ، وهي تنقض تحت ضربات علوم اليهود والنصارى ، كان رائداً وصاغ عقلية جيل كامل هم الآن روّاد . وتأمل كل شيء حتى تفهم أقل شيء ؛ لشدة اللبس والتزييف . ثم شاع الجديد بهذا المعنى ، وغاب التجديد بالمعنى الحقيقي الذي تكلمت فيه أول المحاضرة والذي كان روحا تسرى من العلوم ، وهو بناء العلوم والاجتهاد والكد في استخراج حقائق جديدة في العلوم التي بين أيدينا كما يفعل العلماء في الأمم كلها .

والذين يجتهدون في غرس علومهم في بلادنا من أشد الناس محافظة على تراثهم وأصول حضارتهم ، ولايعرفون الجديد بهذا المعنى الذي يفرضونه علينا ، وإنّما الجديد عندهم هو ما يكشفه عقل الدارسين ، من فكرحي مستور في قلب الفكر القديم ، ثم يضيف إليه من فكره واجتهاده ، وكده ، وكدحه ، مايربو به ويتسع ، وكل المذاهب الفكرية في فروع المعرفة المختلفة يبزغ فيها الجديد من كهوف القديم ، ولا يزال الباحث يحلل ويناقش ، ويطلب ، ويحاور وينابذ ، ويجاذب حتى يكشف عن وجه الفكرة ذات السخاء ولم يعرفوا هم ولاغيرهم من أمم الأرض الجديد بهذا المعنى الذي عندنا ، وهو احتلال فكر دخيل غريب مواقع فكر أصيل نبت وثبت وتأصل وتأيد في منابته وفي قلوب أمته . الجديد بهذا المعنى عمل عدواني يعنى اقتحاماً وغزواً ، وليس اقتحام أرض، ولا غزو أرض ، فحسب وإنّما اقتحام عقل الإنسان ، وقلبه ، وهذا أشرس من اقتحام الأرض ، ولذلك سماه عقلاؤنا الغزو الفكري ، وقد صحب في تاريخنا احتلال الأرض ، وولد معه ، فهو أخوه وتوأمه ، وكان الذين يرفضونه ولايزالون زادة مجاهدين يذودون عن مآثر صالحات ، وكما كان حملة السيوف يزودون عن أرض هذه الأمة كان حملة الأقلام يذودون عن عقلها ، ولهذا

كان مداد العلماء يوزن بدماء الشهداء ؛ لأنهما أخوان ، يتكافئان ، وقد ذكرالحق في سورة التوبة الخروج إلى طلب العلم ، وسماه نفراً ، كما سمى الجهاد نفراً : قال سبحانه : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾(١)، كما قال جل ذكره في السورة نفسها: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢).

وجاءت آية الخروج في طلب العلم في قلب آيات الجهاد وسياق الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ورغبوا بأنفسهم عن نفسه وهذا شيء يجب أن يحكم فهمه ، حتى يعلم أهل الحق وطلاب العلم من علماء هذه الأمة أنهم في رباط إلى يوم القيامة ، قلت إن الذين فرضوا علينا التجديد بهذا المعنى القبيح الذي بينته من أشد الناس تشبثا بتراثهم وعلومهم ، ومن أشد الناس أخذاً بمعنى الجديد الذي هو تأسيس وبناء المعرفة على الوجه الذي شرحته أول المحاضرة ، وكتاب مبادئ النقد الأدبي من أهم الكتب في تاريخ النقد الإنجليزي يقول مؤلفه في أول سطر فيه : هذا نسج جديد لخيوط قديمة ، مع أن الكتاب كان حدثاً مدوياً ، ولكن صاحبه يدل قومه على مصدر علمه ويقول أن خيوطه التي بني عليها ، ونسج منها هي إرث من إرث علمائهم وهي امتداد لفكرهم ، وجهادهم ، والذي له فيه هو النسج الجديد لا غير ، هو لم يستصحب كلام الأولين ، ولم يستضيء به فحسب ، وإنما كلامهم هو اللبنات التي أشاد بها بناءه ، والذي له فيه هو طريقة البناء ، وأسلوب التصميم لا غير .

وهذا فقه جيد لمعنى التجديد ، وحرص على تلاحم مراحل العلم وتماسكها وألا تكون هناك قطيعة بين يومه وأمسه . هو حرص على الكيان ، بل إن

(١) آية ١٢٢ .

(٢) آية ٤١ .

إصرارهم على فرض علومهم وحضارتهم على ديارنا من هذا الباب نفسه ؛ لأنهم لايتشبثون بعلومهم وحضارتهم في ديارهم فحسب ، وإنما يفرضونها حيث يكون لهم سلطان ، فالمد الفكري والحضاري لفكرهم وحضارتهم يواكب في الدرجة الأولى ضروب النفوذ الأخرى من سياسية ، واقتصادية ، وعسكرية، وغيرها ، وهذا وغيره كان كافياً لتنبيه العقل العربي من غفلته ، حتى يدفع عن علومه ، التي هي ذات نفسه ، والتي هي كيان أمته ، وكيان حضارته ، وتأمل الواقع وحلله بصبر كما تتأمل الكتاب وتحلله بصبر والواقع هو الكتاب الأغمض، وهنا شيء يجب بيانه وهو أن الرفض القاطع للتجديد بهذا المعنى القبيح لايعني رفض معرفة ما يقوله الاخرون ، المرفوض فقط هو اصطناع فكر الآخرين ، وعلومهم ، وإحلال ذلك محل فكرنا وعلومنا ، أو غرس فكرهم وعلومهم في قلب فكرنا وعلومنا . كما يفعل أصحاب الأصالة والمعاصرة وهذا شر من الأول ، هذا هو المرفوض . أما معرفة ما يقولون وكيف يفكرون فهذا ليس من المباح وإنّما هو من الواجب ، وكل قدر طاقته ؛ لأنه ليس للإطلاع سدود ولا لطلب العلم حدود ، الواجب أن نتعرف على ماتقوله أمم الأرض وليست أمة النصرانية وحدها ، ولكننا لانعرف ما يقولون لنقول ما يقولون ، ولانعرف كيف يفكرون لنفكر كما يفكرون ؛ لأن هذا تقليد والتقليد عجز والعجز ذل وانكسار ، وإنما لنقول ما يجب أن نقوله ولنفكر بالطريقة التي نراها .

يجب أن يطلع العقل المسلم الحيّ على كل تجارب الأمم وأن تكون كلها تحت سمعه وبصره ، والضابط العاصم الذي لا ترخص فيه هو أن يكون كل ذلك لزيادة خبرة هذا العقل ، فإذا ما عالج علومه ومسائله ، عالجها ببصيرة أحكمت تجاربها لأن كل هذا الاضطلاع على تجارب الآخرين يجب أن يكون قد سبقه ليس اضطلاعه على علومه وأصول حضارته فحسب ،وإنما تربيته فيها

وغمسه من رأسه الى قدمه فيها ، وتشربه له ، وتمثله لها ، وملابسته لها، حتى تعيش فيه ويعيش فيها ، وتقوم به ، ويقوم بها ، ويُمْسِي بها ويصبح ، وتكون هي القطب الذي تدور عليه الرحا ، ويكون كل مااضطلع عليه من تجارب الأمم قد تحوّل الى طاقة ، ونور ، وبصيرة ، كما يتحول الطعام في الجسم الصحيح إلى عافية يباشر الإنسان أعماله بهذه العافية كذلك زاد العقول ، إذا قرأتُ كلاماً لايظل كلمات مرصوصة في رأسي أكتبها في كتابي وأقولها لطلابي، وإنّما تتحول هذه الكلمات إلى طاقة وعافية في نفسي ، وعقلي ، وأوجه نصوص علومي ، وأصول فكر أمتي ، بهذه العافية ، التي وفرها لي ليس تطوافي على كلام الآخرين فحسب ، وإنّما قبله وبعده أني ملأت مزادتي وعيبتي من علومي ، حتى رسخت في قلبي ، وكانت هي ينبوعي ، ومشربي ، ولحمي ، ودمي ، وهذا هو طريق الناس في طول الزمان وعرضه وفي العرب والعجم ، وهو طريق صعب، وبصعوبته رفع الله الذين أوتوا العلم درجات ، وجعلهم ورثة النبيين ، ولم يرفعهم، ولم يرثوا النبوات ؛ لأنهم يخطفون فكرة من هنا ، وفكرة من هناك ويخلطون هذا بذاك . ويقولون هذه عصائر الأصالة والمعاصرة ، أو هذا هوالتجديد ، وكأننا لم نعد علماء وإنّما صرنا باعة في الأسواق وهذا طريق سهل جدا وشائع جداً وفاسد جداً ومنحط جداً وهو أشبه بفعل الدجالين والمشعوذين منه بفعل العلماء ، وكل الحركات الفكرية والإصلاحية والأدبية التي تدور في عالمنا إلى اليوم خرجت من كهف الجديد بهذا المعنى الفاسد والمغشوش والقبيح الذي ذكرته ، خذ موضوع تحديث الفعل العربي وكل ما كتب تحت هذا العنوان لايخرج عن طلب مزيد من أفراغ علوم أهل الكتابين في صدور وقلوب أهل الإسلام ، ومثل هذا مايقال في باب التنوير فإنّه راجع إلى هذا وحكاية الحداثة والتراث لا معنى لها إلاّ هذا .

إلحاح لا يفتر على خلع النفس من ذاتها ، والأجيال بفطرتها متشبثة بكيانها وعلومها وتاريخها وآية ذلك هذا الشباب الرافض ؛ لثقافة الباعة والدجل هذه .

ومن الباطل الذي نبت حول هذا الباطل وقبلناه بغفله عجيبة قياس الخلاف حول قضية القديم والجديد التي أثيرت أول هذا القرن وشرحنا حقيقتها قياس ذلك على الخلاف حول القديم والجديد في العصر العباسي ، ويقولون في تأكيد هذا التدليس الفاجر إن الخلاف بين القديم والجديد سنة الحياة والجيل المسكين يسمع ويشرب ويكرع ، وهو لايعقل أنّ الخلاف في العصر العباسي ، كان خلافاً بين شعراء أدب واحد ، وأمة واحدة ، ولغة واحدة، وتحت مظلة ثقافة واحدة ، وهو خلاف في المذهب الشعري ، كالخلاف بين الفقهاء ، واللغويين ، وعلماء العقائد وهذا شيء والذي نحن فيه شيء آخر ؛ لأنّ الذي نحن فيه صراع بين علوم أهل الإسلام ، وعلوم أهل الكتابين على أرض الإسلام ، ويجب أن تسمى الأشياء بأسمائها وقد كررت هذه الكلمة ويجب أن تتكرر .

ومن الأفكار التي لا أجد لها أصلا في كلام القدماء القول بأن علومنا ازدهرت في العصر العباسي بعد ترجمة علوم اليونان .

وقد ذكر القاضي الأكرم قصة ترجمة علوم اليونان ولم يذكر كلمة واحدة تدل على ذلك ، بل ذكر ما يدل على عكس ذلك وخلاصة ما ذكره أن الدولة الرومانية لما دخلت في المسيحية حرّمت هذا الفكر اليوناني ؛ لأنه فكر وثني ويتصادم مع المسيحية ، فجمعت كل تراث اليونان وبنت له بيتا ووضعته فيه ، وأحكمت أغلاقه وطُلب من كل ملك أن يضع قُفلاً على هذا البيت إمعاناً في إبعاده ، ولما طلبها المأمون كان قد مضى على هذا قرون طويلة فجهلوا القصة ، وجهلوا مكان هذه الكتب ، ثم دلهم عليها راهب ، وسأله الملك هل عليّ من حرج لو أعطيت هذه الكتب لملك المسلمين فقال له الراهب : كلا أيها الملك ، إنّ هذه

الكتب ما دخلت على دين قوم إلاّ أفسدته فأعطها لملك المسلمين ، وأنت مأجور غير مأزور ، والقفطي كتب هذا بعد ترجمتها بقرون ، وهو رجل صناعته التاريخ، وقد أرّخ للفكر الإسلامي وهو قريب من الزمن ولو كانت علوم المسلمين ازدهرت بذلك أو قال أحد إنّها ازدهرت بذلك لأشار القفطي في هذا المقام إلى هذا الأثر ولو بكلمة واحدة ولم أقرأ هذه الكلمة قبل هذا الزمن وأرى أنها قيلت لتقعننا بالأخذ عنهم وأنه ما دام آباؤنا اعتمدوا على آبائهم فلا حرج علينا أن نعتمد عليهم وأن نكون عالة على عقولهم كما كان آباؤنا عالة على عقول آبائهم، وهذا كلام كأنه مقامع ذل يضرب بها الأنف العربي ، ويقال له أبوك أبو جهل وجدك مثله ؛ والذي في كتب علمائنا غير القفطي يدل على أنهم كانوا يزدرون هذه اليونانيات ويحتقرون من اشتغل بها ، وكان القائمون عليها مجموعة من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ، وبعض فسقة المسلمين ، وكان رئيسهم، أبوبشر القُنَّائي الراهب وكان أبو سعيد السيرافي يقول له لو أن حكيمكم يعني أرسطوا قرأ تحرير مسألة فقهية حررها واحد من أصاغر فقهائها لاستصغر الذي عنده .

ومع فساد هذه الفكرة شاعت وملأت الكتب ودخلت قلوب تلاميذ المدارس الثانوية وقلوبهم خالية وغضة فتمكنت ولم تعد قابلة للمناقشة ؛ لأنها عندهم حقيقة .

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وبعد : فإنه لا محيد لنا من أن نعود إلى علومنا ومناهج علمائنا وأن نحيي ذلك وأن نعرف كيف كانت تتفجر ينابيع العلم تحت ضربا أقلامهم، وكيف كانوا يجرونها أنهارا في صدور تلاميذهم وأجيالهم ، وليس لنا في تجديد علومنا إلا هذا الطريق ، وهو طريق صعب ، وكل شيء في الحياة له قيمة لابد أن يكون صعبا وهذا أو الطوفان .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .